

ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

(معتمد ومصنف دوليًا)

الرقم الدولي المعياري للمؤتمر



المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية



ملخص

المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية والمعرض الثالث

المحور 30: محاور اللغة العربية والأدب والبلاغة وتخصّصاتها المختلفة

العنوان: اغتراب الذات وأبعاد خطاب التجريب في رواية "حبيبتي مريم" لهدى عيد أنموذجًا

د. أستاذ مشارك نينا نبيل أيوب

جامعة الجنان/ وجامعة البلمند- شمال لبنان

Nina.ayoub@gmail.com

أ- التعريف بالموضوع

هي دراسة سيميائية سردية منهجية، تركز على السرديات البنيوية، لمعرفة القضايا المتشكّلة، بالكشف عن العلاقة، بين الشخصية الورقية ودورها، باعتبارها جزءًا من عالم الرواية، وما أضافته على المستوى البراغمتي، في إبراز الصراعات والنزاعات الانتمائية عند هدى عيد أنموذجًا "حبيبتي مريم".

ب- الإشكالية

كيف تتجلى أبعاد الخطاب على مستوى المنظور الروائي، العاملي، الإيديولوجي في رواية "حبيبتي مريم"؟ وإلى أي مدى توظف الكاتبة البنية السردية لتمرير خطاب نقدي اجتماعي وسياسي وثقافي ونفسي؟

ج- المنهج المعتمد

اعتماد منهجية السيميائية السردية التي استفادت من البنيوية الخطابية، وانفتحت على سائر العلوم الإنسانية، -ضمنًا- علم الاجتماع، والانثروبولوجيا، والنفس، والسياسة لفهم العلاقة بين النصّ والمتلقّي.

د- أدوات الدراسة

- دراسة الشخصيات من حيث التنوع والتعدد الصوتي.
- دراسة الأسلوب اللغوي والنبرة السردية.

- تحليل المضامين الفكرية والإيديولوجية.
- دراسة العلاقة بين السارد والقارئ.

◆ ه- محاور الدراسة

- البعد الشخصي وتعدد الأصوات السردية.
- البعد الأيديولوجي وخطاب المقاومة والنقد.
- البعد التواصلي وعلاقة السارد بالمتلقي.

و- النتائج

- كشفت الرواية عن قدرة عالية في توظيف تقنيات السرد، لتوصيل خطاب نقدي واضح ضد السلطة والفساد.
- تشكّل "مريم" رمزاً مركزياً للمثقف وللوطن والحلم الضائع، في حين تُمثّل بقية الشخصيات صوت المثقف المقموع أو الضائع.
- نجحت الكاتبة في تأسيس خطاب سرديّ تواصليّ مفتوح يدعو القارئ إلى التأمل، وإعادة القراءة والتأويل.

الموضوع

بداية نتوقّف عند عنوان الرواية "حبيبي مريم" ليكون أول ما يلحظه القارئ ويدفعه ليسأل: لماذا "حبيبي"؟ لماذا مثلاً ياء المتكلم هنا؟ لأنها تمثّل خاصية ما؟ بما يعني أنها موقع بداية وجود "ي" في مرحلة ما؟ أو أنها غير مستقلة في وجودها؟ أم تأكيد فاعلية الحبّ والتّفهم والعطف وديمومة ذلك في ذات القاصّ؟

انطلاقاً من عنوان الرواية، يبدو أنّ الكاتبة تروي جزءاً من خصوصياتها كون ضمير المتكلم يعلن عن نفسه منذ البداية. ونتساءل من خلال تموضعها الورقيّ، هل تقدّم متخيلاً وهمياً عن عالم الحبّ يجعلها غريبة عن ذاتها أو عن محيطها؟ أم تعرض أحداثاً حقيقية جرت معها في محاولة منها لتمدّ جسور التواصل مع الآخر من أجل التعايش أو إيجاد التوازن مع الذات؟ وما المغزى؟

خصّت الروائية مريم بصفة الحبيبة. ومريم "اسم علم مؤنث سامٍ مشترك (<https://www.almaany.com> مريم)، ففي الأرامية "يعني العابدة، المتعبدة التي تخدم في بيوت الله،

وقيل في السريانية معناه: المترفّعة، ومرارة البحر، وسيّدة ومحبوبة ومتمرّدة". والمارية: "البرّاقة اللون، والمارية: البقرة الوحشيّة" (ابن منظور1992، ج13 ص91). يُستخدم علماً على النساء؛ أشهرهنّ مريم بنت عمران أمّ النبي عيسى عليه السلام. ويبدو أنّ الاسم لا أصل له في الجذر العربيّ، قد يكون سريانيّاً أو عبريّاً قديماً. لكن يبقى أنّ الاسم مرتبط بمعناه الدينيّ عند كلّ من الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة. فهي السيّدة التي حملت مرارة فداء المسيح، وهي السامية المترفّعة الطاهرة التي قبلت طوعاً أن تكون أمّته، أمّ النبيّ عيسى عليه السلام من غير زواج، وتعدّ من أقدس النساء في العقيدة. فمن هي مريم في الرواية؟ أخدمة الكلمة أم المترفّعة عن الفساد، أم محبوبة ذويها المتمرّدة على المعايير الزائفة؟

إنّ هدى علي عيد روائية وأكاديميّة وناقدة من لبنان، لها العديد من الدراسات النقدية والمؤلفات السردية آخرها "حبيبتي مريم" أنموذج الدراسة، المصنّفة في قائمة الـ9 في فئة الروايات المنشورة لجائزة كتارا للرواية العربية من العام 2023.

تتألّف القصة من 238 صفحة، وتقع في أربعة أقسام، صدرت عن دار الفارابيّ في طبعتها الأولى من العام 2022- تسرد الرواية حكاية عائلة لبنانية تهزّها وفاة الأمّ /الصحافية مريم، في ظروف غامضة. تتناوب الشخصيات الرئيسية على السرد: الابن **حكيم جوال** المقيم في لندن، الزوج **غريب** الذي تتلبّسه الصدمة، ثمّ **مريم** عبر مذكراتها، وأخيراً الابنة **جودي** التي تحاول لملمة جراحها جرّاء موت زوجها في انفجار مرفأ بيروت الشهير، ومن ثمّ والدتها.

يتحوّل مسار الرواية بعد اتّهام **الطبيب الجنائيّ غريب** بأنّه قد يكون وراء موتها، فيدفعه الاتّهام هذا إلى الاطلاع على محتويات حاسوب زوجته **مريم**، ليكتشف ملفات خطيرة تقود إلى احتمال اغتيالها، لذلك يصرّ على فتح القبر، بعد عشرة أيام من الدفن، للتحقّق من الجثمان.

إنّ الرواية في هذا السياق، تنزاح من البناء العاطفيّ إلى البنية البوليسية، حيث يصبح الكشف عن الحقيقة الهدف المركزيّ. تنكشف بالتدرّج أسرار مرعبة من تورّط السلطة في موت **مريم**، وتختتم الرواية بصدمة رمزية فراغ القبر من الجثة، ما يفتح أبواب التأويل على مصراعها، وعلى هذا الأساس يعتبر عنوان الرواية "حبيبتي مريم" النواة الدلالية الأصلية التي تنطلق منها الدلالات الفرعية الأخرى. ولكيفية تمظهر الرؤية في الخطاب السردية لا بدّ أن نميّز الروائيّ من الراوي من الشخصيات، أي الرؤية وأبعادها.

1-المنظور الروائيّ

من المعلوم، أنّ الرّوائيَّ شخص يعيش في الحياة، وهو الذي يخلق العالم التخيليّ (أيّوب 2011، 61، وزيتوني 2002، ص. 95-96). وعلى هذا الأساس، فإنّ هدى عيد هي مؤلّفة قصّة "حبيبي مريم". أمّا الرّاوي فهو معطى نصّيّ يبتدعه الرّوائيّ ليسرد الحادثة. وهو من ثمّ جزء من العالم التخيليّ الذي يخلقه الرّوائيّ، ولا ينتمي إلى الحياة الواقعيّة (أيّوب 2011، ص. 61).

لذا، سنعالج بالدراسة الصّوت الرّاوي، بوصفه "الأذات الثّانية للكاتب"، (سويرتي 1991، ج. 2، ص. 150؛ زراقت 1999، ج. 2، ص. 500)، تعيينه: متكلمًا/ مشاركًا أو شاهدًا، أو عليماً، وتحديد موقعه: حاضرًا أو غائبًا، داخل عالمه المرويّ أو خارجه (أيّوب 2011، ص. 62-64؛ وعزّام 2005، ص. 149)، ونعني به، "منظومة القيم العامّة لرؤية العالم ذهنيًا" (زراقت 1999، ص. 503)، أي: الطّريقة التي يدرك بها الرّاوي العالم ويقدم بها الرواية، لبلوغ غايات طموحه (لحمداني 1991، ص. 46)، ومن ثمّ، تحليل المنظور الرّوائيّ على المستوى الإيديولوجيّ في الرواية، البحث في القضايا المتشكّلة في النّصوص الأدبيّة ومحاورها الدّلاليّة. وبما أنّ المقصود بالإيديولوجيا، منظومة المبادئ والقيم والأفكار التي يرسّخها الرّوائيّ في مرويه، فمن الضّروريّ، ملاحقة أبعاد رؤية الكاتبة إلى المنظومة: الاجتماعيّة، والثّقافيّة، والسياسيّة، والنفسيّة، من خلال القراءة التّأويليّة التي تربط العالم المتخيّل بالعالم الخارجيّ، أيّ، التّجربة الأدبيّة، بالاختبار الإنسانيّ في واقعه الحيّ (عزّام 2005، ص. 149)، مستفيدة من مفهوم الرؤية عند منشئ البنيويّة التّكوينيّة لوسيان غولدمان (Lucien Goldman)، ومفهوم قضايا الرؤية التي وردت في السّيميائيّة الخطابية الاجتماعيّة عن بيار زيمّا (Pierre Zima)، بعد أنّ انتقد الماركسيّة والبنيويّة التّكوينيّة...

1- الرّاوي وموقعه في القصّة

في الرواية تتناوب الشخصيات التي تروي الأخبار، كلّ على حدا، صوت الرّاوي بضمير المتكلم، بوصفه الأنا المتكلّمة السّاردة في القصّة، وكلّ متكلم يقتضي مخاطبًا، والمخاطب هنا المتلقّي؛ ففي القسم الأوّل يروي حكيم بن غريب جوال ووحيد مريم، مثاله: "لم ينقض وقت طويل بعد على عودتي إلى لندن" (عيد 2022، ص. 37)، وفي القسم الثّاني زوجها غريب: "اليوم سأفتح حاسوب زوجتي، وأطلع كلّ ما فيه" (عيد 2022، ص. 65)، وفي القسم الثّالث مريم تروي أحداثًا عندما كانت حيّة تُرزق: "عملي في الصحافة، جعلني أتعرف الحياة من الداخل، وأعابنها من قرب (عيد 2022، ص. 141)، وفي القسم الأخير جودي بنت مريم: "يريد منّي والدي أن أتحدّث إليكم، لكنّي فقدت شهية النطق، وسعادة نثر الكلام" (عيد 2022، ص. 187). فأحداث القصّة تتعلّق بعائلة لبنانيّة تعاني من مَوَاطن التعنيم على الحقيقة، تواجه نظام مقاليد السلطة التي تسرّبت مفاستها إلى المواطن اللبنانيّ وارتباطاته العائليّة والاجتماعيّة وتأثيرها على مسارها الوجوديّ/المصيريّ والنفسيّ.

تمتاز هذه الرواية بالتنوع على مستوى الرواية. وإن وُجد راوٍ أوّل مهيمن فيها يتكلم بضمير المتكلم المفرد، فإنه يدع صوتاً يخبر بجزئيات وتفصيل لتكتمل الحكايا الكبرى. فالراوي الشخصية، إذاً مشارك في أحداثها، علاقته تتمثل في داخل كون القص، ينتمي إلى العالم التخيلي الذي تدور فيه أحداث القصة، وحاضر فيه، يتدخل ويتفاعل، يعبر عن وجهة نظره، ويوجه المتلقي، مشاركاً في الأحداث، مما يجعل وجوده محسوساً داخل السرد. وهذا ما يخلق التشويق والغموض، يشد المتلقي في سعي الشخصية إلى فهم العالم الروائي. كما في رواية "الغريب" (L'Étranger) لـ"البير كامو" (Albert Camus)، يرى المتلقي من منظور شخصية "مورسو" (Meursault)، ولا يعرف أكثر مما يعرفه هو.

إن الروائية هدى عيد تتخلى عن موقع السارد العليم المطلق، ما منح الرواية تعددية في الصوت (Polyphonic)، حيث كل شخصية لها وعيها الخاص، واستقلالية تتدفق من داخل الذات. تقنية جعلت الرواية أشبه بيوميّات داخلية عميقة، لشخصيات "حقيقة" تظهر في الرواية مرتبطة بوجهة نظر فردية، ومواقف متباينة تجعل الرواية مفتوحة على التأويل.

وعليه، تتعین علاقة الراوي بكون القص، علاقة حضور دائم. وعلى هذا الأساس، نحن أمام حالة من السرد الشخصي الكثيف، كل يروي حكايته من منظوره، يوم استغرب أفراد العائلة طلب الأب غريب جوال نبش قبر زوجته مريم لإخراج جثتها، والتحقيق في لغز وفاتها، وذلك بعد اطلاعه على أسرار في حاسوبها. يُعدّ هذا الحدث نقطة تحوّل في المسار الحكائي السردية، لنستشفّ يوميات هذه العائلة وذكرياتها. كل الشخصيات مشاركة في القصة. أي أنّ كل راوٍ منهم، ذاتي الحكاية المروية autodiégétique، يروي شذرات من التجربة المُخاضة. فمن هي هذه الشخصيات؟

- شخصية الأب غريب جوال

غريب هو اسم علم مذكر عربي. ولفظة "غريب" لغويًا هو البعيد (ابن منظور 1992،....)، أمّا في اللغة الفرنسية (Alienation)، فقد اشتقت من الكلمة اللاتينية (Alienatas) معناها: الذي لا يمتلك ذاته ومصدره الفعل الثلاثي (Alienare)، أو الانسلاخ أو الاغتراب الذي يعني نقل ملكية شيء إلى آخر، ويعني الانتزاع أو الإزالة، أو تستعمل لتعبّر عن حالة الانسلاخ (حمّاد 2008، ص.13 وحبیب 1979، ص. 69-82). ومن ثم تأتي المسألة: هل غربة غريب جوال بالجسد عن الموقع المعيش فيه، أو هو فقدان الذات أمام الذات؟ فالغريب لغة هو البعيد عن الوطن، أو من هو ليس من أهلها أو مقيم فيها، أمّا الجوال فكثير التنقل والحركة والسفر. ما يوحي بالعزلة، أو الانفصال عن الجذور. يشكك غريب جوال بحقيقة

واقعة موت مريم، في وطن بات غريباً عنه. من هنا يعيش صراعاً داخلياً، ما يعكس رحلة البحث عن مريم الغريبة عن الموت بالعاطفة. فهو المثقف يتحرك من أجل اكتشاف المستور.

- شخصية الأم مريم: راجع الفقرة الثالثة من الدراسة أعلاه.

- شخصية الابن حكيم: والحكيم هو العاقل المتأنّي في قراراته، يُستخدم من صفات الله الحسنى، ويبدو أنّ حكيم جوال ذو حكمة يمثل صوت الجمعي المهاجر، العابق بحبّ العائلة.

- شخصية الابنة: جودي وهو اسم أنثوي عربيّ، يحمل دلالات الكرم، والثبات إذ إنّ الموضع الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام هو جبل جودي (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) (سورة هود، الآية 44)، فهي شخصية تجمع بين الأنوثة والثبات الوطني والعائليّ.

غريب جوال، جودي جوال وحكيم جوال أسماء تحمل التناقض ذاته؛ الثبات في المعنى والتنقل في الشكل، وديمومة الحب ولكنها متغيرة. كيف؟ لذا لا بدّ من تقصي البرامج السردية لكلّ شخصية تعالفاً مع عنوان الرواية "حبيبتي مريم. وكيف بُنيت في المستوى الظاهر فيما كان القاص يبني المستوى العمقيّ؟

2- البرامج السردية

نتتبع العوامل في هذه الرواية وفق نظام غريماس (Algirdas Julien Greimas) السردية العامليّ الذي صنّف الشخصيّة بحسب ما تفعل وسمّاها "العامل" (Actant)، وأخضع جميع الشخصيات لبنية جدولية. وباتت العوامل هي الشخصيات منظوراً إليها من جهة أدوارها وعلاقتها ببعضها ببعض، وقد اعتبرها غريماس (Greimas) حينئذ ممثلين: acteurs (أيوب 2011، ص.35-34). والعامل السردية وفق غريماس (Greimas) ليس شخصيّة بالضرورة، إنّما هو وظيفة داخل القصة، ما يُتيح هذا المفهوم التحليل المجرد والعميق لأيّ نصّ سرديّ، بتفكيك عناصره وفهم أبعاده الدلالية.

نشير إلى أنّ غريماس (Greimas) اعتمد في تحديده مفهوم "الممثل" في الحكي على الدراسات الميثولوجية السابقة التي نظّمها فلاديمير بروب (Vladimir Propp) في سبعة أدوار، مختزلاً بها الوظائف الإحدى والثلاثين، واستند إلى أعمال شتراوس (Claude Lévi-Strauss) وبسطها. هذه الدراسات تنظر إلى الجانب "الوظيفي" الذي يشمل الأفعال، التي تقوم بها الشخصيات، ودوائر أفعالها السردية، وعلاقتها بعضها ببعض، وقد نظّم غريماس (Greimas) تلك العوامل أزواجاً متقابلة من ست وظائف سردية أساسية، تأتلف علاقاتها في ثلاثة محاور: الرغبة (علاقة ذات بموضوع)، والتواصل (علاقة مرسل بمرسل إليه)،

والقدرة (علاقة صراع بين مساعد ومعاكس)، (29، Greimas 1996، أيوب 2011، ص. 38-39)، واكتشاف شاكلة نهايات المساعي بتحقيق حالة اتّصال للذات بالموضوع، أو انفصالها عنه¹.

وعليه، فالذات من يسعى إلى الهدف، والموضوع ما تسعى إليه الذات، فالمرسل (Destinateur) من يدفع الذات إلى الفعل، والمرسل إليه (Destinataire) من يستفيد من تحقيق الفعل ومن نتائجه، فالمساعد (Adjuvant) من أو ما يساعد الذات في بلوغ هدفها، والمعارض (Opposant) من أو ما يُعيق الذات عن تحقيق هدفها. صحيح أن غريماس (Greimas) تأثر بنموذج بروب (Propp)، لكنّه انتقل كما أسلفنا من الشكل إلى الوظيف، والدلالة، إذ إنّ بروب (Propp) اهتمّ بالتركيب السطحيّ، بينما غريماس اشتغل على البنية العميقة والدلالية السردية، ولا يجد غريماس (Greimas) عارضاً بين التحليل الوظيفي والتحليل الوصفيّ، بل يرى أنّهما متكاملان على صعيد بناء المعنى وعلى صعيد بناء الأفعال (Courtès 1976, p. 56).

2-1- التحليل العاملي والمثلي

إنّ النصّ مشحون بالدلالات السردية، ننتبّع العوامل/الشخصيات المحورية العاملة السطحية (Actantielle)، وفق وظائفها الظاهرة داخل النصّ، لا على مستوى تطوّر الحدث فحسب، بل في انتاج المعنى الرمزيّ والإيديولوجيّ.

1- برنامج حكيم جوال السردية

لا يبنى النموذج العامليّ دفعة واحدة، إنّما يتكوّن تدريجيّاً. فانقضى على وجود غريب في لندن حوالي الخمس سنوات، أربعاً منها في دراسة هندسة الاتصالات، والأخيرة في إحدى شركات القطارات الحديدية، حيث اقتطع أيام عمله لتشجيع والدته في بيروت، وما إن مكث عشرة أيام وصله إنذار للالتحاق بالعمل وإلاّ الفصل، وما إن وصل المهجر حتّى هاتفته أخته جودي فتأخّرت برغبة الوالد إعادة نبش القبر، للتحقّق من حقيقة موت مريم. والآن بات عليه بذل مجهود إقناع مديره بالعودة، للوقوف عمّا يجري في عقل والده ومؤازرة العائلة.

الذات: حكيم الذي يتحوّل من غائب إلى شاهد مشارك.

الموضوع: البحث عن الحقيقة، دعم الأب، والعائلة.

المرسل إليه: العائلة وذاته الباحثة عن الانتماء.

¹ - علامة تمثّل حالة اتّصال الذات الساعية بموضوع رغبتها (البرنامج السردية المحقّق)، و: حالة انفصال الذات عن موضوع الرغبة.

العامل المساعد: علاقته بالأم، حضوره الجسدي لمؤازرة العائلة.

العامل المعارض: المسافة، الغربة، الحيرة، الخوف من الحقيقة.

يمثل حكيم الجيل الثاني وضمير المغترب الذي يعود لمواجهة الواقع، ومؤازرة العائلة باكتشاف الحقيقة المغيبة. يتقاطع برنامجه السردّي مع الأب، ويكمل فعل المعرفة من الخارج إلى الداخل. فذاته الساعية تمثل حالة اتصال n بموضوع رغبته وبتحقيق البرنامج السردّي.

ب-برنامج غريب جوال السردّي

يسعى الرّاوي، بوصفه شخصيّة مشاركة بالتحريّ عن ملابس موت مريم، مقابل الطبيب الجنائي الذي يسعى إلى اتّهامه بقتلها بواسطة قاضي التحقيق.

الذات: غريب هو المحرّك الرئيس للفعل السردّي.

الموضوع: الكشف عن الحقيقة الغامضة لموت مريم.

المرسل: الشك، الألم، اتّهام الطبيب الجنائي.

المرسل إليه: تطهير غريب ذاته من الإدانة، العدالة.

العامل المساعد: حاسوب مريم، الإصرار، ولداه، الحنين.

العامل المعارض: الطبيب الجنائي، المجتمع، سلطة الدولة.

يتحوّل غريب من زوج حزين إلى باحث ومحقّق. يتّخذ موقفًا شجاعًا يزعزع حقيقة الموت لاستجلاء الحقيقة، وتبرئة نفسه من تهمة القتل، بالمستندات الموثّقة في ملفّات مريم. غريب يمثل الذات المتحوّلة، المتّصلة n بموضوع رغبته وبتحقيق البرنامج السردّي، التي لا تكفي بقبول الحدث بل تعيد تفكيكه.

ج- برنامج مريم عواد جوال السردّي

تسعى مريم إلى اكتشاف الفساد المستشري في الطبقة السياسيّة الحاكمة، مقابل تعنّت السلطة في تبرير غاياتها ووسائلها.

الذات: مريم تمثل في حياتها صوت الحقيقة.

الموضوع: فضح الفساد السياسي وكشف الانتهاكات.

المرسل: الوعي السياسي، إحساسها بالواجب الوطني.

المرسل إليه: الرأى العام، الشعب، ضميرها الذاتى.

العامل المساعد: الصحافة، وعيها المتقدم.

العامل المعارض: السلطة، التهديد، الاغتيال/الاختفاء.

مريم ليست مجرد ضحية؛ هي الفاعل المسبق الذي بدأت القصة به، عبر نضالها من أجل الحقيقة، وفاتها الغامضة تمثل نتيجة مقاومتها، فمضى الذات في حالة انفصال U عن موضوع الرغبة، بيد أن مذكراتها هي برنامج مضاد للنظام القائم.

د- برنامج جودي جوال السردى

تسعى جودي إلى لملة جراحها والحفاظ على وحدة العائلة، في متابعة راية والدتها مريم في كشف الحقائق.

الذات: جودي هي ذات هشة، تمثل الجانب الوجدانى.

الموضوع: فهم موت والدتها، تجاوز صدمة فقدان زوجها دانيال.

المرسل: الألم الشخصى، فقدان الأم والزوج.

العامل المساعد: المشاركة في البحث عن الحقيقة/ الحدث، العائلة.

العامل المعارض: الصدمة، الحزن، الموت.

تؤدى جودي وظيفة التكثيف العاطفي للرواية، وتنجح في تقبل مأساتها الشخصية، وتجاوز المحنة بسبب مؤازرة أخيها وأبيها لها، وذات جودي الساعية نجحت N بموضوع رغبتها ، وحقت برنامجها السردى، لا بل ذهبت أبعد من ذلك، إذ قررت حمل لواء كلمة والدتها الحبيبة مريم، والاستمرار في التحقيق إيماناً منها أن العدالة لا تموت ولو تأخرت بالانجلاء.

3- المستوى الإيديولوجى

تُعدّ رواية "حبيبتى مريم" عملاً سرديًا متشعبًا يعالج جزءًا من الواقع اللبناني، متّخذة من حادثة مريم نقطة انطلاق لتفكيك المستوى الإيديولوجية وفق الأبعاد والثقافية والاجتماعية والسياسية والنفسية. تتشابه الأصوات السردية في الرواية لتشكل نسيجًا حكايتيًا، يعكس أزمات الفرد والمجتمع في ظلّ سلطات مهترنة، وحيوات محطّمة، وغربة هوية.

يتصدّر البعد الإيديولوجي بنية الرواية من خلال شخصية مريم الصحافية التي دفعت حياتها ثمناً لمحاولتها كشف فساد سياسي. لا تقدّم الرواية سردًا بوليسيًا صرفًا، بل تتعمّد تحميل الموت نفسه بُعدًا سياسيًا، مما يجعل القبر، الذي يُعاد فتحه، مجازًا للنّيش عن الحقيقة المطموسة من قبل سلطة الاستبداد.

إنّ الاتّهام الذي يتعرّض له غريب/ الزوج، من الطبيب الجنائيّ بواسطة قاضي التحقيق الأوّل لا يعكس فقط إجراء جنائيًا، بل يحمل رمزية تشكيك السلطة في المواطن وإدانتها المسبقة، فيقول قاضي التحقيق الأوّل له: "غريب جوال، أنت متهم بقتل زوجتك المدعوة مريم راجي عواد، بالإضافة إلى اتّهامك، بجملة من الأمور الأخرى التي سأؤجلّ الحديث عنها، إلى وقت لاحق" (عيد 2022، ص.71)، وهو الذي له تاريخ مهنيّ مشرّف في التعليم. هذا السياق يكشف كيف تستخدم السلطة القضائية الطبّ كأداة قمع وتزوير، تمارس من خلالها الدولة أو السلطة الحاكمة عنفها الرمزيّ، وعليه، فالرواية لا تطرح السؤال: "من قتل مريم؟"، بل: "ما النظام الذي يسمح باغتيال الحقيقة؟".

1- البعد الثقافيّ

الثقافة في الرواية حقل صراع. فهي ليست هوية صافية، بل تتنازعها عدّة مكونات:

- الثقافة الصحافية التي تمثّلها مريم، وتجسّد القيم التنويرية في مجتمع يلاحق المتقّفين ويكّم أفواههم.
 - ثقافة المغترب التي تتجسّد في شخصية حكيم، وهو الابن العائد من لندن، حاملاً وجهة نظر "مراقبة" للمجتمع الذي غادره والمتصلّ به روحياً، ما يعكس انشطار الهوية اللبنانية بين الداخل والخارج.
 - الثقافة الذكورية المضمرة، إذ يتمّ تحميل الزوج غريب مسؤولية القتل، ليس فقط جنائياً بل رمزياً، ممّا يطرح تساؤلاً عن موقع الرجل الشرقيّ في مؤسسة الزواج.
- وهنا يستوقفنا أنّ الرواية تُسائل الثقافة اللبنانية في تعاطيها مع الموت المفتعل، حيث القبر لا يُغلق، بل يُفتح من جديد، إشارة إلى أنّ العنف ثقافة لا تنسى، والجرح لا يتعافى إلاّ بإحراق الحقّ.

ب- البعد الاجتماعيّ

يتجلى البُعد الاجتماعي من خلال تشتت أوصال العائلة، بين الموت والهجرة، الإدانة والتزوير. فالعائلة المفجوعة مرآة مجتمعي ممزق، تحكمه الصدمة والريبة، وتشتتته الغربة. من هنا تقدّم الرواية نقداً للطبقات المهنية والنخب، بخاصّة عندما يتحوّل الطبيب الجنائي من شاهد إلى أداة اتّهام، ممّا يشير إلى ارتهان المهن السامية والإنسانية إلى هشاشة المنظوة الطبيّة وهشاشة منظومة العدالة، وانهيارها أمام قوّة التوثيق الذاتي، عبر حاسوب مريم وليس عبر الدولة والجسم القضائي. وكأنّ الفرد أصبح وحيداً أمام قدر لا يمكن تصديقه.

في هذا السياق يؤدّي غياب مريم إلى تشويه العلاقات الإنسانية وزعزعة الروابط الاجتماعية والثقافية. فهي ليست فقط الأمّ الحنون، والمرأة الحكيمة، والحبّية، وليست فقط القادرة على التأثير الإيجابي في حياة الآخرين، بل انعكاس على إعاقة تحقيق التعايش في واقع مليء بالفساد السياسي، ودليل على محاصرة السلم الأهلي والاعتراب في وطن يقتنص الهوية الوطنية من أجل غايات آنية تفكك الوطن، وأنّ هذه الوحدة بحاجة إلى قبول الآخر والحوار، وجهود متكاتفة حفاظاً على العيش المشترك.

من الملاحظ تفشّي العنف في مجتمعنا الحالي، بكلّ مكوّناته وأحزابه وزعمائه وسياسييه، ما يستدعي التشكيك بالمعنى الحقيقي لأفعالهم وغاياتهم وخطابهم السياسي، وصولاً إلى التشكيك بالقيم المعلنة بما يتجانس وغاياتهم الملتوية.

ج- البُعد النفسي

وهو البُعد الأكثر حميميّة، وتعبّر عنه الشخصيات الثلاث:

- غريب يعيش حالة من الانهيار العميق، وبأنّ "انقلاباً كونياً ما قد طال كلّ شيء في الحياة" (عيد 2022، ص. 78)، والتشكيك. فالرواية تصوّر غريب كرجل ينهار أمام الفاجعة، ويُعيد البناء عبر فعل المواجهة مع البحث عن الحقيقة، بمؤازرة العائلة وفعل المحبّة، يقول: " هذه هي جودي الحقيقية، ابنة روعي وعقلي معاً، بك وبأخيك سأحارب الدنيا بأسرها، لن أكتفي بمحاربة طواحين الهواء " (عيد 2022، ص. 228).

- وجودي تعيش صدمة مزدوجة (POST-Traumatic Stress Disorder) (PTSD) أي: الاضطراب ما بعد الصدمة النفسية إثر موت زوجها في انفجار الرابع من آب الذي طال مرفأ بيروت، ثمّ اغتيال والدتها، يتخلّلها الحزن والقلق واللامعنى. تجتاز المرحلة لأنّها تستشعر بحبّ، "الحبّ وطن حقيقيّ. استشعر ثقة تتولّد، في داخلي، بقدام الأيام؛ ثقة لم يستطع كلّ التفجير، وكلّ القتل الذي كان،

التفوق عليها أو سحقها. في صدري تصميم عميق ينمو بتوالٍ، ويشتدّ عوده يوماً تلو آخر، تصميم على متابعة ما كانت تفعله "مريم" حبيبتي. أبي كان محقّقاً، بدأ من حيث يجب البدء. سأفتح أنا حاسوبها هذه المرّة، وسأعيد قراءة كلّ ما كتبتّه مريم، وسألاحق بوعي، كلّ الدروب والأسماء، وكلّ الحروف التي رسمتها" (عيد 2022، ص.230).

-حكيم يعيش اغتراباً نفسياً مكانياً، حيث العودة إلى الوطن ليست سوى جرح الهوية والانفصال، وهو مرآة الشخصية من الشباب التي تعاني الاغتراب، ما يعكس الخلل الداخلي عصباً خارجياً.

د- البعد السياسيّ

إنّ البعد السياسي في رواية "حبيبتي مريم" هو النسيج التحتاني الذي يحرّك معظم الأحداث. فالرواية لا تخفي دلالتها السياسيّة، بل تحملها كلّ فعل سرديّ، بدءاً من موت مريم الغامض/ مروراً بمحاولات الكشف عن الحقائق وصولاً إلى الرمزيّة بفراغ القبر.

فمريم تمثّل رمز الثقافة المقاوم والصحافيّة الناشطة النزيهة تصطدم بسلطة فاسدة، سلاحها القلم والموضوعيّة في التوثيق والتحليل حتّى لحظة اختفائها. إنّ اختيارها كمركز للسرد يحيل إلى إدانة واضحة للنظام السياسي القمعي الذي يسكت الأصوات الحرّة الذي يفلت من العقاب، ومن تصفية الناشطين في غياب العدالة الحقيقيّة. من هنا، فإنّ فراغ القبر في أبعاده الدلاليّة يرمز إلى غياب الحقيقة في ظلّ نظام فاسد. ولكن جودي الابنة، أي الجيل الثاني، لن تنسى، بل ستحمل شعلة البحث عن الحقيقة وتتابع مسيرة العدالة.

أما شخصيّة غريب/الزوج فيصطدم بمعوقات الواقع، في ظلّ انعدام الأمان والاضطراب، تتغيّر نفسيّته ويتناول على المحرّمات في نبش القبور. ومن المعلوم يُعتبر هذا الفعل تدنيّاً لحرمة الميت، إن عند المسيحيّين أو المسلمين. وما نبش القبور إلا دلالة وجوديّة، وجزءاً من استعادة العدالة والبحث عن الحقيقة المفقودة في ظل الاضطراب الاجتماعيّ، ورمز الكشف عن الظلم الذي تعرّضت له مريم في ظلّ الظروف الغامضة التي أودت بحياتها. فرمزيّة الفعل ليس مادياً فحسب، بل يستدعي المتلقّي إلى لحظة تأمل عميقة في وجود وفناء الإنسان.

تواجه الروائيّة اختراق الخطاب السياسي وتداعياته على علائقيّة الفكر البشريّ في مجتمع هشّ، تستبدّ به هيمنة القوى السياسيّة الفوقيّة التي تمتلك القرار وسطوة المال.

فمریم مواطنة تمتلك جعبة ثقافية على مقاومة الخطاب السلطويّ، تستهدف تحرير الخطاب الشعبيّ المتداول في الشارع، والمساءلة في إطار النقد والتصحيح التي تحمل سمة الثورية والتمرد، ذات إنسانية واعية تمارس حقّها في الاختلاف **قيماً** يكون من مصالح الوطن والمواطن. وغريب المثقف المستنير بالحكمة يواجه السلطة الفاسدة. من هنا في الرواية الكثير من القضايا الوجودية التي **تعصف** بلبنان، منها السياسيّة؛ كالفساد، والرشوة، والتهريب، وتدايعات انفجار مرفأ بيروت على أبناء الوطن، الغلاء المعيشي، إلى جانب القضايا الدينيّة كنبش القبور، وقضايا اجتماعية كالروابط العائليّة، والهجرة، ومساءلة القيم وتفكيك آليات الهيمنة.

الخاتمة: وعليه، يتبدى لنا أنّ هذه الرواية هي رواية الفقد المركّب الذي **لم ولن يُعوّض، مع أشخاص يعانون منه، فيحيون الموت في وطن جعلته "مافياته" فضاء طارداً لأبنائه**، هي البلاد التي يُنتظر أن ينهض فتيانها بها، من بين الأنقاض، لتعويض هذا الفقد المركّب، ما يعني أنّ النهاية تبقى مفتوحة.

ولعلّ ما يؤكّد هذه الفكرة عودة كلّ من **غريب وجودي** إلى حياتهما الطبيعيّة، وإلى الوطن، وهما يحضنان الطفلة الجميلة الذكيّة، ابنة **دانيال وجودي**، وحفيدة **غريب ومريم**، الواعدة بجيل جديد. جيل قد يُتاح له محاسبة من أفلت من العقاب ومن الجريمة التي جعلت الوطن وأبنائه "الضحية" في زمن "الأفول"، وهذا ما يكشف أنّ "الفقد" كان فقد "الحبيبة" **مريم** في ترميز إلى فقد "بيروتنا" والحقيقة والوطن والمرتجى.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن منظور(630-711هـ). 1992. لسان العرب؛ نسقه وفهرسه علي شيري. ط2. دار إحياء التراث العربي، مؤسسه التاريخ العربي. لبنان.
- 2- أيوب، نبيل. 2011. النقد النصّي (2) وتحليل الخطاب نظريّات ومقاربات. ط1. مكتبة لبنان ناشرون. بيروت.
- 3- حمّاد، حسن. 2008. الإغتراب الوجودي: دراسة في جدل الصراع بين الرغبة في التفرد وغواية الامتثال. ط1. هلا للنشر والتوزيع. مصر.
- 4- زراقت، عبد المجيد. 1999. في بناء الرواية اللبنيّة. ج2. لا ط. دائرة منشورات الجامعة اللبنيّة. بيروت.
- 5- زينوني، لطيف. 2002. معجم مصطلحات نقد الرواية. لا ط. مكتبة لبنان ناشرون. دار النهار. بيروت.
- 6- سويرتي، محمّد. 1991. النقد البنيويّ والنصّ الروائي، لا ط. ج2. الدار البيضاء. أفريقيا الشرق.
- 7- الشاروني، حبيب. 1979. "الاغتراب في الذات"، مجلة عالم الفكر. العدد 1. 69-82.
- 8- عزّام، محمّد. 2005. شعرية الخطاب السردّي. لا ط. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق.
- 9- عيد، هدى. 2022. حبيبتني مريم. ط1. دار الفارابي. لبنان.
- 10- لحداني، حميد. 1991. بنية النصّ السردّي من منظور النقد الأدبيّ. ط1. المركز الثقافي. الدار البيضاء.
- 11- Greimas, Algiras Julien. 1966. Sémiotique structurale: Recherché de méthode. Larousse. Paris.
- 12- Courtés, Joseph. 1976. Introduction à la sémiotique narrative et discursive. Hachette. Paris.

13-<https://www.almaany.com> (مريم في 30 نيسان 2025)